الفصل التاسع

إمارة الأمير عبد الله بن بُلُقِّين بن باديس، مؤلِّف هذا الكتاب

(٥) الحوادث الأخيرة قبل النزاع ونُذُر الكارثة

٦١ - ثورة يهود مدينة اليُسَّانة

ولـمَّا كُنْتُ في تلك الفترة، بَدَتْ أُمورٌ وأسبابٌ دَلَّت على ماكان من الانتقال ومُقدِّماتٌ آذَنَتْ بالزوال. فأوَّل ذلك نفاق أهل اليُسَّـانة لعِلَّةٍ نذكُرُها، وأَرَقَّ سـبب لم يُؤبَهْ له. وذلك أنّي، لـمَّا أمـرتُ ببُنيان السُّـور الـمتَّصل بالحمراءِ، ودبَّرتُه على تلك النُّصْبة التي أضْرَبتْ عن شـرْحِها لاشتهارها هيَّأت السعادةُ أن وَجَدَ البَنَّاؤون في الأساس قُمْقُوماً مملوءًا ذهباً أَعْلموني به.

فلما وقفت عليه، لقيتُ فيه ثلاثة آلاف بِثْقال جعفرية. فاستبشـرتُ بها وتفاءَلْتُ بنجاح الطلبة، والدنيا تسخرُ بنا كما سخرت بمن كان قبلنا. فقلتُ: «من أساسِهِ يكون بُنيانُه!» .

وكانـت دارُ أبـي الربيع اليهوديِّ الخازن للأموال في دولـة جدِّي - رحمه الله - مبنيَّة على ذلك الأسـاس؛ فعلمنا أنـه من ماله المدفون. فأتَى ابـن الـمرَّة متنصِّحًا بالأمر، ويقول: «أرسِـلوا عن ابنه، يكشـف لكم سـائر دفائِنه» فخاطَبْنا عنه ليَردَ علينا في بعض الأمر. وكان صِهْرُهُ ابن ميمون، كنَّا قد قدَّمناه على يهود اليُسَّانة بوجه الأمانة، وأَسْدَينا إليه جميلاً من التنويه به؛ فاستمال بها أقوامًا من الغُرَباءِ، يصول بهم على أهل مِلَّته؛ وكان خبيثاً. فأحَسّ بالقِصَّة، ووجسـت نفسه منها، واعتذر عن صهره، وساءَ لذلك ظنُّه، وخشي أن يُعذَّب على مال أبيه.

ووَافقَ قَبْلَ ذلك، عند انصرافنا من لِيِّيط، أن فَرَضْنا على أهْل اليُسَّـانة ذهباً كثيراً باسْـم التَّقْوية، لم تَجْرِ عادتُهم به، وحمَلْناهم في ذلك على الصحَّة والانطباع؛ فنَفَرَتْ لذلك أنْفُسُهم. ووجـد ابنُ مَيْمون الـمذكور الـسبيلَ إلى إغْرائهم وحَمْلِهم علـى النفاق؛ فأجابوه، ودخلوا في الـسلاح؛ ونادَى فيهم أن: «جِدُّوا، مَعْشَرَ بني إسْرَائيل، في حماية أموالكم!» وافتضح بذلك ابن مَيمون. وسَبَقَتْ له جنايةٌ في قتل* [ق ٥٤ أ] عامِلِنا ابن أبي لَوْلا على الـمُسْـتَخْلَص رياسةً وعدوانًا . وامتَنَعت اليُسَّانَةُ بالجملة.

فلَمـا رأيـتُ ذلك، لم أجدْ بُدًّا من مُدارة الأمر . واشْـتَـرَط مُؤَمَّـلٌ بإصلاحه، ونهض. ثُمَّ إنّـي عملـت رأيي بَعْـدَه، وعَلِمتُ أنَّـه لا يلقى إلاّ أحَـد وجْهَيْن: إمَّا طاعـةً على غِشٍّ، أو عصيانًا؛ وأيُّهما كان، فإرسـالُ العسكر إليه واجِبٌ، وشـدَّةٌ وتَرْهيبٌ، ليعلموا قَدْر ما جَنَوه. وخَرَجْـتُ بنفسـي في أثره، وقد اجتمعت إليّ الأنداب. فإذا بمُؤَمَّل قـد أَقْبَلَ مُنْصَرِفًا، وردَّنا

عــن ذلك الـمذْهَب، وقال لى: «قد أَصْلَحْــتُ الأمرَ مع ابن مَيْمون. ونُهوضُك إليه لايزيد القوم إلاّ نفاراً، وربمّا اســتعانوا بعسكر ابن عَبَّاد، لاسيمّا أنه الآن بقُرْطُبة، وليست تُؤْخَذ بإحصار ولا قتال!» على أنّي قد عَلِمتُ أنّ ابنَ عباد لا يجيبهم فى ذلك الوقت كلّه، ولا اشتهر بذلك إلا ما كان الناسُ يذكرونه، وابن مَيْمون يفتخر به ويُطْمِع به أهل اليُسّانة.

فقبلتُ قولَ مُؤَمّل، وانصرفتُ على مقربة من الحضرة؛ وقلتُ: «خُرُوجِى إلى هُنا أو وصُولى إليهم سَــوَاء! إذا أردنا التَّهْييب، فقد وَصَلْنَاهُ!» ثمّ قلتُ لـمُؤَمّل: «صِفْ علىَّ ما انفَصَلْتَ!» فقال: «إنّ ابن مَيْمون زَعِيمَها عَدَّدَ أشياء أنْكَرَها من الإرْسالِ فى صهره، وهذِه الفرضةِ العظيمةِ، وســائرِ ذلك من الألقاب اللازمة. فضمنتُ لهم الصكوكَ برفع ذلك عنهم، ولابن ميمون فى خاصَّتِهِ.» وأمرتُ بعَقْدها والإرسال بها. وقرّت الجبالُ قرارها.

ووجَســتْ نفســى من ابن مَيْمون لإظهاره الخلاف والإعلان بذلك، وعَلِمْتُ أنّ هذه هُدْنَةٌ علــى دَخَنٍ، وأن لا طاعة تصحُّ لى معه، وســيؤُثر أمثال هــذه. فَدبَّتْ إلىّ الـمُداخَلة من اليهود المخمولين فى زمانه، ووعدتُهم بالإحســان؛ وتكرّر فى الوســاطة ابن سِيقِى، حتى أبْرَمْتُ من ذلك ما أمّلتُه. وكان أخْذُ ابن مَيْمون يســيراً، لاعُصْبَة له، وهو غافِل. وكان الواســطة أيـضًا ابنُ الـمَرّة مع أبى العبّاس الحكيم. وكان * [ق ٥٤ ب] ذلك ممّا نقمه مُؤَمّلٌ لانحياشــه عن ذلك، إلى أن وردوا الحضرة على عادَتِهم، وأمرتُ بثقافه مع ابنه برضاءٍ من الشــيوخ، وأمرتُ أن لازعِيــم فيهم بعد اليوم إلاّ الكلّ منهم أمَنَاءُ مَنّوْه بهم؛ فشــكروا ورَضَوْا. وخاطَبْتُ عامَّتَهم نُعْلِمهم بما لهم فى ذلك من الصلاح. وتهدّنت الأحوال وقرّت، إلى أن تلف الكلّ.

٦٢ - قضيّة زناتة

وقَضِيّــة أُخْــرَى بَعْــد هذه فى أمْــر زناتة: إنّه، لما أعملــتُ الفكرة فى عاقبــة الأمر فى هذه الفِتَن (١) العارضة، رأيت أنّ الاهتبال بالـمَعاقل من آكَدِ مايجبُ النظرُ فيه، كالذى تقدَّم ذِكْرُه من النظر فى عُدَدِها وما يُصْلِحُها، وأنّ الأوْلَى اســتصلاحُ ما فســد من نفوسِ قوّادِها. وذلك أنّه لم يكن يَلِى لنا مَعْقِلاً قَطُّ غيرُ صِنْهاجَة والوصْفان والعَبِيد، ما خَلاَ زَنَاتَة: فإنّهم كانوا أجْنَاد الحضرة.

وكان الصِّنْــفُ الـمذكور قد ضَعُفَ؛ واســتولى عليه النقصانُ لـمُطالبــاتٍ جرَتْ عليهم من قِبَــل وزراءِ الدولــة كاليهــودىّ وغيره؛ فإنّهم كانــوا يَرَوْن ألاّ ولاية تتهيَّــأ لهم مع صنهاجة لاحتقارهم إيَّاهم وأنَفَتِهم من توليةِ مِثلهم، فكانوا يميلون إلى الصِّنْف البرْانىّ كلّه، ولـمّا جرى على اليهودىّ ماجرى منهم، اعتقَدَها النايةُ فى نفســه، وخشــى مثل ذلك، فجعل نفسه فى مطالبتهــم، وتبديدهم، وإنزالهم على الإنزالات الضعيفة؛ ومن كان بيده شــىءٌ تُسُــبّب إليه وأُزيــل عن يــده. فأدْركهم النقصانُ والقلّةُ، وزاد فى زَنَاتَة، وقويتْ أحوالُهم وإنْزالاتُهم. على أنهــم كانــوا على الحقيقة خيرة جُنــدِ الأندَلُس، والموثوق بهم فى الشــجاعة والنجدة. وكان الصِّنف كثيراً، لايعدم ضمُّهم مَنْ له مال.

---

(١) أصل: «الفتون».

فقُلتُ فى نفسى: «هؤلاءِ القوّاد الذين على الحصون، وإذا كانت أنفُسهم فاسِدةً، ولايتذكّرون معنــا على نعمة طائلة، فكيف يُمسِــكون المعاقل، أو بأىِّ قلب يجــدُون معى؟ وإنه لا عِوَض منهم فى الثِّقةِ للحصون* [ق ٥٥ أ] وإن زَنَاتة هؤلاء المُتأصِّلين لا ثِقةَ فيهم للمدينةِ الفُوقى ولا للحصــون، أكثر من خدمة الجُندية، لا يَعدَمُ منهم أحدٌ. فأنا جديرٌ أن أشْــرِك مَن ضَعُف من صِنْهاجَة بهؤلاء الأقوياء الذين أدْرَكَتْهم العناية ويُمسِــك واحدٌ منهم إنزال خَمســة فُرْسانٍ وستَّةٍ. ثمَّ من قنع بما بيده بَقىَ؛ ومن لم يُرِدْ، لم نعدَم منه العِوَض!» ففعلتُ ذلك، وأشرَكْتُهم. وكان فى هذا كله تَحْريكٌ لِلشرِّ والقال:

إذا لــم يَـكـن عَــوْنٌ مـن الله لـلـفـتـى فـأكْـثَـر ما يـجْـنَـى عـلـيـه اجتهادُه[1].

فلمَّا رأى كبارُ زَنَاتة ذلك، قلقوا، وساءَت ظُنونُهم؛ فكُنتُ، متى دعوْتُهم إلى خِدْمةٍ، نَجدِهُم عنها عاجزين: من أشْرِك ومن لم يُشْرَك؛ فامتحنتُ على ذلك؛ فقيل لى: «إنّ كِبارَهم يفسدون صغارَهم! ولو أنّك تُخْرِج غَوْغَتَهم[2] من البلدة، لصَلُح لك سائرُهم!»

فأمَــرْتُ بإخــراج ثلاثة أنفس ممَّن يتَّهم منهم وكان المأمــورَ بذلك لَبيبٌ الخصىُّ، صاحبُ المدينة ذلك الوقت، وثقناه لتربيتِنا له. وكان فى المجلس أقوام يحسدُهم ويتّهمُهم على نفسه أن ينقلوا طريقتَه السّيِّئة؛ فأصاب الفُرْصة للخراب، وأرسل من قِبَلِه إلى أولئك المُخرَجين، وإلى من ســواهم من بنى عمِّهم، يقول لهم: «إنّ الطلَبَ قد وقَع فيكم من مَجْلس الســلطان؛ وأمِرْتُ بإخراجِكــم. فلا توهِنوا، واجْتهدوا فى التّعصُّب عليــه وتَرْويعِهِ! وأنَا مَعكم! فإنه، إذا رأى جماعَتَكم، رجع إلى قَوْلكم!» فلم يكن إلاّ بعد الأمر بســاعةٍ، وإذا بجماعة الجُند قد أقبلوا إلى باب المدينة، يقولون: «إمَّا أن يَرُدّ شِــرْكَتَنا، وإمّــا فالكلُّ راحلون عنه، مُنْتَقِلون إلى غيره!» وأتَى الفاســقُ لَبيبٌ وأصحابُه المُتَّفقون معه، يقيــم حُجَّتهم، ويُعضد قولَهم، ويخوِّف منهم. فَميزَّتُ الأمَر، وعَلمتُ أن هذه جَعجعَةٌ لا يُرجَع فيها إلا إلى رأى؛ فأظهرْتُ الشِّدَّة، وقلتُ: «لستُ براجع عمّا أبرمْتُ؛ فتكون نفوسُ الذين أشرَكتُ معهم مُنصرفة* [ق ٥٥ ب] إلى مثل نفوسهم! فمنْ شاءَ فَلْيمُرَّ، ومنْ شاءَ فلْيبْقَ!» فلمَّا سمعوا بذلك، خرج الكلُّ.

ومُؤَمَّل، فى هذا كلّه، على اتِّفاق مَع لبيب، يدخل فى رؤوس الجنْد ويقولون لهم: «إنَّ هذا مــن قِبَل غيرِنا؛ ونَحنُ أبرياء!» ويرونهم الشــفقة من الأمر والطَّعن علــىَّ. وصَحَّ ذلك عندى مع طائفةٍ مـن شـيـوخ العبيد أصحاب مُؤَمَّل، وعملتُ حســابَ زَناتة أنّهم لا يَزُولون بالكلِّ، وأن ذلك ترْهيبٌ، وأنّ الرَجوع عمّا أمرتُ به يضربهم إلى غير ذلك مما يُخلُّ بالرأى ويكوِّن لهم الصولة والحماقة فى المعصية، وأن انقيادَهم للأمر واستعذارهم بعده أشْبَهُ، وللحُجَّة عليهم أعَزُّ وأبهى.

فلمَّا كان يومٌ آخرُ، خرجتُ بنفســى إلى عَرْضِهم كَىْ لا يُبْطَن علىَّ من تقدَّم ذكْرهُ. فأمرت بالبريــح عليهم وإحضار الزمــام، لنعْلَم منْ صَحَّ مُضِيُّهُ وقعودُه فوجــدتُ الكلَّ مجتمعين، قد

(١) ورد هذا البيت أعلاه.

(٢) كذا فى الأصل، عوضاً عن «غوغائهم».

انصرفوا مُتقطِّعين ليلاً، لم يَغِبْ منهم أحد فوق الثلاثة الذين أُمرتُ بإخراجهم، وجعلوا يَعتذِرون ويَتنصّلون. فقلتُ : «الله أكبر ! هذا أَشبَهُ وأَلْيَقُ بالملكة ! » ورأيتُ مُؤَمَّلاً ولَبيباً وغيرَهما قد عزَّت عليهم طاعَتُهم مُؤمِّلين أن لو كانت طائفةٌ لا ترفع.

والعَيْن تُبْصِرُ فى عَيْنَىْ مُحَدِّثها إن كانَ مِنْ حِزْبِها أو مِنْ أعادِيها

٦٣ - انقلاب مؤمَّل وثورته فى لَوْشَة

ولمَّا قرَّ أمرُهم قرارَه، جاءَ مُؤَمَّلُ فى إثر ذلك يقول: «إنّ هذا الانْطباعَ منهم ليس لرَغْبةٍ فى البقاء معك! غير أنّهُم يُدَارونك حتى يحصلوا على فائد إنزالاتهم، ويتزوّدُوا به! فلا فائدٌ تنزل عليه غيْرَهم، ولا رجالٌ بقوا معك ؟» وكنتُ إذ ذاك ناظراً منه بعَيْن الثقة ؟ فعمل قوله فى نفسى، وقلتُ: «لايَخلو هذا القولُ عن وجْهَين: «إمّا قد اطّلَع على ذلك منهم، فهى نصيحةٌ، أو لم يطّلِعْ، فهو بغائلته لا يَدَعُهم، ويدْخِل هذا فى رؤوسهم، وتكون علىّ فى ذلك الخسارة . وإن احتجْتُ إلى العِوَض، لم يكن لى على ماتُنْزِله ولا فى بيت المال الكفاية لِمَا نحن بسبيله * [ق ٥٦ أ] من النفقات على سائر الأمم ! » فلم يَأتِنى من هذه الكلمَة نعاس. وأمرتُ بإخراج كلّ من فى رأسه حماقةٌ. فبلغ عِدّتُهم نحو المائة فارس؛ فخرجوا عن المدينة، وتصَفّتْ، ولم يَبْقَ فيها إلاّ مَنْ ينطاع لكلّ أمر.

وعَمَلَ فى نفسى فِعْلُ لَبيب وشيوخ العَبيد، وصحّ عندى منهم وفيهِمْ أنّهُم عَوَّجُوا زَنَاتَةَ، وكانوا أشدَّ علىّ من كلّ أحَدٍ. وجعلَ زَنَاتَةُ يَذكرون ذلك، ويقولون وقتَ اعتذارهم: «لاذنب لنا! إنّمَا نَحْنُ جُنْدٌ، ولولا ثِقاتُه وعَبيدُه الذين حملونا على ذلك، لم نجترم[1] عليه ! » وجَعَلُوهم فى وقت قيامِهم يمشون على الأسواق، ويأمُرون الناسَ بالقيام، ويقولون لهم: «لم نَدْفَعْ نَحْنُ، إلاّ وهو يُريد إدخالَ النصارى! » فلم يلْتَفِت الناسُ إلى قولهم، إذ لم يروا ذلك من ثِقات الدولة وصِنْهاجة.

ولمَّا أُخْرِجَ زَنَاتَةُ، أمَرْتُ بعد ذلك بإخراج اثْنَين من شيوخ العَبيد الذَيْن صحّ عندى إشْعَالُهم لهذه القضيَّة، وثَقّفْتُ لَبيباً . فوافَقَ إخْرَاجُهُمْ ومُؤَمّلٌ خارجَ المدينة، فلحقوا به، وقالوا له: «قد أَخْرَجَنا ! وغَدا بِكَ هَكَذَا ! فانْظُرْ لنفسك ! » فخَرَجَ معهم من فَوْره ذلك، قاصِداً إلى لَوْشة، مع مَن اتّفق معه مِثْل ابن البَرّاء الكاتب وغَيْره.

وكانت هذه ثِقَةً قَديمةً بَيْنهم مع بنى مالك عُمَّالِ لَوْشة، أنّه، متى دهمهم أمرٌ، لَجَؤُوا إليها. فنهضوا من فَوْرهم ذلك قاصدين إلى لَوْشة، ولحقوا بها ليلاً. ودخل المدينةَ، ولم يمنعه أحَدٌ لمَكانته مِنّا؛ وحسب القائدُ ومن فيها أنّه رَسولٌ. فصار فى قَصَبَتِهَا، وجمع الجُنْدَ والرعيَّةَ، وصرخَ فيهم بالبُكاء، وافتعل الكذب، وقال لهم : «لم أَخْرُجْ من غرناطة إلاّ كما تَرَوْنَ : «بطَوْقى على عُنُقى» ! وتركتُ فيها النصارى قد استَحْوَذوا عليها، وكُشِفَ عنّى ! فاثبتوا معى ونَوَجِّهُ إلى كلّ سلطان : فمن أجابنا، اعتَضَدْنا به ! » وخاطَبَ بذلك

---

(١) أصل «نجترموا» .

حُصُـونَ الغَرْب، يأمُرُهـم بالخِلاف؛ وأرسـل إلى زَنَاتَـةَ الـمُخْرَجين، ليكونـوا معه مُضَيِّقِين علـى * [ق ٥٦ ب] غـرناطـة. وإنَّ أهْلَ الجِهَة مع أهْلِ الحصون، لـمَّا سمعوا ذلك، دبَّرُوا رَأيَهـم. وأرسـل كـل حِصْنٍ من كبارهم إلى الحَضْرة مَنْ يطَّلِعُ صُـورةَ الأمر؛ فإن وَجَد خِلافَ قولـه، لم يُخربـوا وجوهَهم معنا؛ وإن ألْفَوْه حَقًّا، نظروا لأنْفُسِـهم. فأتونـي أفواجاً مُعَزِّين ومُهنِّئينَ على السـلامة من النصارى، ومُسْـتَفْهِمينَ جليَّةَ الحال. فأخْـبَرْتُـهم بـالأمـر عـلى وجْهِه، ولم يروا شـيئًا مِمَّا ذكر مُؤَمِّلٌ. فطَابت أنفسُـهم، وعلِموا أنَّه مُخالِفٌ مُنافِقٌ. فبادَرَ الكلُ إلى مُنازَلَتِهَ، وسألونى عَسْكَرَ الحضرة.

وكُنْتُ، لما صَحَّ نفاقُهم بلَوشة، قد أبْلَيْتُ لهم عُذراً، وأرْسلتُ إليهم كُتُبًا ورُسُلاً تأمِّنُهم ممَّا خافـوا، وتُحَذِّرُهم قبيحَ العاقِبة فـى إيثار الفتنة، وأنِّى مُطلِقٌ إليهم أهاليهم، ويخُروجُون عن الحصون حيث شـاؤوا بأمانٍ ووثائقَ؛ وهم فى هذا كله، لايزيدون إلاَّ طغيانًا وتهَدُّدًا، بائِينَ على الشـرِّ، طالبين للثـأرِ بلا ثأر. فلمّا يئسْـتُ منهم، مع اتِّفاق الحصون عليهم، أرسـلتُ بالعسكرِ، وقوَّدتُ عليهم يُوسُفَ بن حَجَّاج، سنذكُر وَجْهَ مُصاهَرتِه لنا بعد هذا؛ فنهض؛ فلم يَكن إلاَّ سـاعةُ وصوله، وجَزَعَ مَنْ معه فى القَصبة، وخَلَتْ عليهم؛ ودخلها العسـكرُ، وأُسِـرَ فِيها هو وكل من معه. وأتانا من ذلك فَتْحٌ عظِيمٌ.

وأمَرْنا بثِقافِها وسـوقان الأسْرَى، وثقَّفْناهُم مُسْـتَفْتِينَ فى أمْرهم؛ فَأفْتَت السُّنَّة أنَّ قَتْلَهم غير جائزٍ إذ كان نفارُهم جَزَعًا، على أنَّهُمْ كانت لهم سَعَةٌ فى الأرضِ غَيْر لَوْشَة، وإنَّما أرادوا الفسادَ فـى الأرض؛ وآخَرونَ يقولون بقَتْلِهم. فآثرت الألْيَـقَ والأبْعَدَ من الآثام، وأنَّ ذلك لا يفوت؛ ومن أخلاقِ الكِرام التأنِّى والعَفْوُ عند المقدرة. فأوْجَبَت السياسـة تثقيفَهم والشـدَّة عليهم، لئلاَّ تكون طرقةً لغيرهم؛ وهو بابٌ فَتْحُهُ على الدولة من أضَرِّ الأشياءِ؛ فلا غَفْلَةَ لـمَلِكٍ يَقْظَانَ فيه.

وخاطَبـوا، مـدَّةَ كَـونِهـم بـلَوْشـة، كلَّ رئيـس بالأنْدُلس، حتَّى صاحـب مالَقة. فلم يجبْهم * [ق ٥٧ أ] أحَدٌ. فلما يَئِسَ مُؤَمِّلٌ منهم، أرْسَـلَ إلى أمير المسـلمين، يُزَوِّرُ عنده الأمر كلَّه، ويكذب، ويقول له: «لم نُؤْتَ إلاَّ من إنكارى أمرَ النصارى، والقيام بدعوتك» حُجَّةً لاتقوم على سـاق. وكان العَسْكَرُ إليها مُقْبلاً مع نُعْمان؛ فانصرف لمَّا عُلِمَ بأخْذِها.

٦٤ - وصف الثائر نعمان وسيرته ضد عبد الله

وكان نُعْمانُ المذكور ممّن فَعَلْنا معه جميلاً، وأحْسَنَّا إليه لحُرْمةَ القرابة والانقطاع إلينا من الـمرابطـين؛ وزال عنَّا بعد إعماله الدواخِل علينا فـى حصوننا الغربيّة، وعَقْدِه مع أهْلها أن يصيروا فى طاعة الـمرابطين متى دُعُوا. وكان له بتلك الجهة إنْزالٌ؛ فتمكَّن من القُرْب والعَمَل بذلك، وخرج عنَّا بسَـراح ادَّعَى مـن أجْله أنَّ له بالعِدْوَة ميراثًا ومـالاً يُريد اقتضاءَه؛ وأخَذ لـه النهـوضَ؛ وإذا به يَتَسْـعَى علينا. وقال للأمـير: «نُفيتُ من مدينتى مـن أجْل نصيحتى لـك ومَحَبَّتِـى فى دولتك!» أمْرٌ لم يكن منـه حَرْفٌ. حتَّى إنَّ أطْواقى، إنْ تكلّمَتْ، لسَـعَتْ علىَّ، للقَدَرالذى شاءَهُ الله، عسى لعاقبةٍ محمودةٍ إن شاء الله.

فعَمِلَتْ هذه المعانى كلُّها فى نفس أَمير المسلمين، مع ماصُوِّرَتْ عنده بكثرة الأَموالِ المكذوبِ عليها والـمُنْتَفَقةِ فى طاعته والجهاد معه لو بَقِيَت الحال.

٦٥ - مسألة زواج الأميرتين أختى عبد الله

وإنّـا فـي تلك الفترة، رأينا من الصـلاح النظرَ لـمن مَعَنا من البَنَـات وتَزْويجَهُنَّ قَبْل أن يفجأ أَمْرٌ، فيَكُنَّ على غير عِصْمةٍ ولا كفيل. فتخيَّرْنا لهمَا من بنى عمِّهما شـاكِلَةً، منهم مَعَدَّ ابـن يَعْلَى، للذى كان عليه من النجابة والعقل والمَحَبَّة؛ فصَدَّنا عن ذلك أَهْلُ دولتنا، وقالوا نصيحةً وحَسَـداً: «إنْ أنـت تصاهَرْتَ إلى بنى عمِّـك، حَمَلَتْهم دالَّةُ القرابـة مع الـمُصاهرَة علـى الظهور عليك وفسـاد حالك بصلاحهـم. فإياك! وعليك بمَنْ هـو دون قِيمَتِك؛ فيُراعى إحسـانَك، ويَرَى هذا منك كثيراً، ويَرَى عيالَه بعَيْن مَوْلاه؛ وإن هو تحرَّك إلى شـىءٍ، قعدَتْ بـه دقَّة شـأنه؛ فلا أتباعَ يُهاودونه.» فقبلْنا ذلك حـذراً *[ق ٥٧ ب] على الدولة، وقلْنا: «من صَلُحَ من قرابتنا، نُدْرك فعلَ الخير فيه دون مُصاهَرةٍ تُطْغيه!» .

وكان مـن بعـض خَدَمَتِنا مَنْ حَضَّنا على يوسـف بـن حَجَّاج، لِعلْمِه بأَخلاقـه مدَّة صحبته له؛ ووَصَفَه بصِفَاتٍ ظاهِرُهَا يشـبه المشـاكلة. وذلك أنَّه قال: «فى الرجل انقباضٌ واسْتِيحاشٌ من النـاس؛ وبذلك تأمَن من إجماعه عليك؛ وفيه شُـحٌ كثيرٌ، لايُخْرِج خَـيْرَهُ من منزله؛ وفيه غيرةٌ شـديدةٌ تُوَافِقُ مُعاشَرَةَ العيالِ؛ وبه حَرَجٌ ونَزَقٌ، لا تَصِحُّ به ولاية؛ وهو من نقصان البيانِ وعِىِّ اللسان ما لا يطّبى بذلك الناس لتألُّب، إن شـاءه عليك، ولا نقض لفعالك أو مَقالك والرجلُ من أوسـاط الناس ومِمَّن لا ينتمي إلى مَلِكٍ، ولا تُحدِّثه نفسُه بما لا أَصْلَ له فيه. فهو بين يديك كالكمأة التى إن شِـئتَ قَلَعْتَها، لم تتعذَّر عليه من أصلِها، أو كالصَّمْغة، إن شـئتَ فرَّغْتَها، ظَهَرَتْ؛ وكانت لك المنَّة والخيار! والآخَرُ هو تَرْبِيَتُك ونشأَتُك، وابنُ وزير جدِّك، وله من بُعْد الهِمَّة وَكَرَم النفس وحُسْـنِ السـمت والوقار على حال الحداثة ماتُرْجَى بَرَكَتُهُ؛ وليس بمُنقِدٍ قدرُه. وإن أنـهَضْتَه إلى أمْرٍ، جدَّ فيه، وأنت آمنٌ من سوءِ العاقبة، وإنما هو بمنزلة من أنهض ابْنَه إلى دَرَجة تَقِرُّ عَيْنَه. والأَوْلَى أن يدعُوَك صِهْرُك «مَوْلاى»، من أن يكون لك مِثْلاً، فتشقى أنت ونَحْنُ، إذ الغمدُ لايحتمل سَيْفَيْن، ولاندرى مَن السلطانُ فيكم، إلاَّ من ارتَضَيْته وقدمْتَه.» .

فعقدتُ لهما النكاحَ على أتَمِّ ما يمكن، واستعددتُ فى سائر أمْرى بالأَحْزَم، ووَكَلْتُ ذلك إلى الأقدار، وقلتُ: «هذا جُهْدُ الاستطاعة، ودون جُهْدِك لا تُلام. ولله أن يقضى بما شاء!» .

ولَـمَّا صار وَلَدُ حَجَّاج بتلك المنزلة، شَـرِهَتْ نفسُـه إلى وزارة الدولة، مَقْطَع من لم يميِّز المذهـب. ولم نكـن بعد وزارة سِمَاجَة نسـتعمل لذلك أحَـداً. فكأنّه وقع فى نفسـه التقصيرُ به، جهالةً من الإنسان *[ق ٥٨ أ] بقدره له مُهْلِكَةٍ، وتَرْكِهِ صيانَةَ قدره له فاضِحةٍ.

٦٦ - حديث معترض عن نصحاء الأمير عبد الله

وكان أهـلُ دولتنـا على مَذْهَب جهالةٍ فى هذه الأُمـور: إنَّ كلَّ أَحَدٍ منهم يُريد أن يعمل برأيـه، وأن تجـرى الأمورُ على هواه؛ فإن لم يتَّفِـقْ ذلك له، صار فى حيِّز الأعْداءِ؛ ولو كان

على مرغوبهم، ما اتّفق لرئيس عَملٌ، ولا تَمَّ له شــىءٌ. وكانوا قَبْلَ أيّامنا قد شــغلهم الخَوْفُ من صولة رؤَســائهم: ماكانوا يَرَوْنَ الســلامةَ غَنِيمةً . ولـمّا تَمَّ لهم فى أيّامنا الأمنُ، وأنسيتُهم ما مضى، أدرَكَهم الأشــر والبَطَر، إلى أن تطمح أنفُســهم لغير ذلك. وكُنَّا نَحْنُ نَظُنُّ أن بالأمن نسلم من اللائمة والعداوة. وخانَنَا القياس؛ وكذلك العاقِلُ الـمُتمَرِّن لايَجب له أن يظُنَّ بالناس ظَنَّه بنفسه، ولا يعمل حسابَه وَحده . فليس كلُّ النَّاس على مَذْهَبك، ولا هواه مُطابِقٌ لهواك ! ولا محالة أن باختلاف الأهواءِ تَقَع العداوات، وباتّفاقنا تكون الـمُصاحَبة وحُســن الـمُعاشرة. وأصدق الناس مَنْ يكابدُ معك، ودهاه مثل الذى دهاك، وإن كان من الأباعِد؛ فلا تستريح إلا إليه؛ ولا تشْــكُ هَمكَ مع من لم يعْنِه ماعَنَاكَ: فإمَّا سَــاهٍ عن حَديثك، وقدْ أكْثَرت عليه، وإمَّا مُخَالِفٌ لـمَذهبِك، قد استهدفْتَ إلى عَدواته، وأحْدَثْتَ فى نفسه ماكنت غنيًّا عنه.

هــذا طبــع البَشَــرِيَّة: فلا تســمع ممَّن يريــكَ التحقيق بكلامــه؛ فإنَّ الحــقَّ ثقيلٌ على النفوس، والباطلَ إليها أسرع، وعليها أخَفُّ. ولـمَّا علم الشيطانُ حِيَلَ الإنسان، لمَجْراه منه بمنزلة الدَّمَ، أتاه من قِبَلِ هواه. ولا سبيلَ أن تَلقى أحدًا عَدِيمَ العَقْل: كلٌّ قد أخَذَ من التجْربة حِصَّتَه، وحاز اختياره؛ وعَرْضُك عليه ما يَبْدو إلَيْكَ عجزٌ وكلفةٌ: فإن كان رَيِّضًا، فهو بشأنه أبصــر؛ ولعــلَّ له عذرًا، وأنت تلــوم؛ فتُولد عليه انقباضًا منك وتَحَفُّظًــا لئلّا يُريك الخِلاف حتّــى يأتى بما اعتــزم عليه. وإن ألْفَيْتَهُ جاهِلاً، فمن العناءِ رياضــةُ الهَرِم، لم تَزِدْه أكْثَرَ من نَقْلِه * [ق ٥٨ ب] عن ودِّه ، ولا يَنْتَقِل عن طَبْعه.

كَيْــفَ مارَوَّيْتُ فــى الأمْر، أجِدُه جَهْلاً مــن فاعِله وكُلْفةً، إذْ لا تأْديــبَ يجمل بالـمُعَلِّم ولا الـمُتَعَلِّم. اللَّهُمَّ إلَّا من شُــورَ فى أمْر، فعليه أن يعطى ماعنده من غير إلحاح، ولا يتمرَّن فــى انتظــار طاعةٍ؛ فيكون الناصِــح، إن سُمِعَ منه، تمادَى على صداقتــه وخُولِفَ فى غِش. فما قام خَيْرُكَ، يازمان، بشَرِّكَ !

لــو أنّــى أعْـلَم أنّ بخلافٍ يَســير على القائل يُنْتَقَــل إلى حيِّز العداوة، لم أُشــاوِرْهُ فى أمْر أبَداً: وأكونُ قبْل مُشــاوَرَته مخاطِراً حَذِراً الذى نَخْشــى منه، أشَــدَّ علىَّ من عاقبَة الأمْر المعْــروض عليه. فالعاقِلُ يقيسُ على هذه المعانى ويحرز بهــا صديقَه. فرُبَّ عداوة تتولَّد بأرَقِّ سَــبَب، أو عداوةٍ تعُود إلى مُودَّةٍ، عند الحاجة إلى التعاوُن أو الانخراط فى ســلْكٍ واحدٍ من عــارضٍ يعمُّ أو مَرْغوب يُرَامُ ؟ تكون الحاجة فيه سَوَاءً.

ولا خَيْــرَ فى عَقْل لا يتصرَّف تارات؛ والـمَذْهَبُ السَّــرْمَدِىُّ راكِبُ طريقةَ الجَهْل، واقِعٌ فــى الورطــات . ومن الحقّ ما يســمج، فــلا تقوم حلاوتُــه وفرضُه بما يعقب من الـمَشَــقّة؛ والعاقِلُ يتخيّر الأمور؛ فيَتَجَنّب معسورَها، ويتَــوَخّى مَيْسُورَها.

٦٧ - رجع الحديث عن زواج الأميرَتَين أُخْتَى المؤلف

وللقائِــلٍ، إنْ يحْتَــجَّ على هذا النَّكاح : ما الذى أُريدَ به ؟ إن كُنَّا غالبين، فقد اســتَغْنَينا عنه؛ وإن كُنَّا مغلوبين، لم يَفِدْ ذلك! يعترض هذا بعدَ تِبْيان ما وقع!

وإنّما أردْنا اكتسابَ الحَسَنة مع السّتر؛ وإنّه، متى عرض عارضٌ، كان البعلُ مُكْتَفِياً بامرأته، يُقَلِّعها إذا أحْوَجَ ما تكون فيه عند ذلك، وتكون لنا منهم عُدّةٌ، ويُقِلُّ طمعُ كلّ من يَشْرَهُ إلى خِطْبَتِهما .فقد كان كثيرٌ من سلاطين الأندلس رَامَ ذلك؛ وتوَقَّعنا العاقبة إن فَعَلنا: تنشّبْنا فيما لامَرَدَّ فيه، ولا يُنفَكّ عنه إلّا بالأموال الجسيمة التي هي أوْلَى بالبَذْل في إقامة أود المملكة وماكنّا بسبيله من الجهاد؛ وإن أبَيْنا، وقع الخِلافُ والحِقْدُ من الطالب، بحيث لايوافق؛ على أنه لم نحسب حسابَ ما جَرَى. ※ [ق ٥٩ أ] ولو كُنْتُ أعلم الغيب، لاسْتَكْثَرْتُ من الخير. وكان زماناً لم نحسب فيه حسابَ خَيْرٍ خرَجَ منه مثقالُ ذرّةٍ، ولا قِسْنا على شيءٍ من الشرّ إلاّ ولم نبلغ مِعْشَارَ مايكون منه، بل يدهى منه أمرُهُ وأفْظَعُهُ.

ولقد قال المُطالِبون إنّ أمير المسلمين كان أحَقَّ بها، وإنما فَعَلْنا ذلك فراراً منه. وهذا من المُحَال أن يكون أحَدٌ يتبعّد الشّرف، ويُدْعَى إلى مافيه حَياتُه، فيأباهُ! ولو أنّني أشعر بشيءٍ من ذلك، ونَرَى أنّ المَذْهَبَ في هذا، لكنْتُ أشدّ الناس اغتباطاً بالأمر، وإليه مُسارَعةً، وعليه حِرْصاً.

ولم يكن مَنْ ألَحّ في ذلك أكْثَر من المُعْتَصِم – رحمه الله –؛ فبادَرْتُ إلى ماتقدّم ذِكْرُه، خَوْفاً من كلّ ماذكَرْناهُ . وإنه، لمّا تواتَرَتْ على أمير المسلمين في هذه الأنباءُ، وصُوِّرَتْ عنده على غير ماهي، عَمِلَتْ في نفسه.

وانقطع رَجاءُ مُؤَمِّلٍ بِلَوْشة من أن يجيبَه سلطانٌ من الأندلس؛ وعند ذلك، خاطَبَ أميرَ المسلمين؛ فلم يَصِلِ الخطاب، وهَيّأَ العسكر إليها مع نُعْمان، حتّى انقضى خَبَرُها على ما وَصَفْناهُ .

٦٨ - تدخُل الأمير عبد الله في مسألة مُرسِيَة وغضب المُعتَمِد

واعْتَقَدَ المُعْتَمِدُ دُخولَ النصارى بَلَدَه ومُحاشاتهم لِجِهاتي، مع ماكان في نفسه من أمر مُرْسِيَة. فإنّ ابن رَشِيق قال لي مشافهةً، ونحنُ على لِيِّيط: «أريدُ أن أكون صَنيعك وأدخُلَ في جُملتك.» وقال لي رَسُولُه بعد ثقافه : «لو أنك تقبل مَنْ تَخَلّفَ فيها، لأقامَ الخُطْبَةَ باسْمِك، وكانت في طَاعَتِك! تَجِدُهُ ويجِدُك !فأبَيْتُ هذا القول جُمْلةً، وقلتُ في نفسي: «هذه نَصْبَةٌ لم يكَدْ أصحابُنا يتخلّصون منها إلّا بَعْد المرام الشديد والكدّ العظيم! رُدَّ منهم هذه المشقّات! فلا يعْترضها هذا الوَقتَ إلاّ جاهِلٌ بالزّمان! وليت لو سَلِمْنا من هذا كلّه ! وإنه مَنْ أمّلَ أن يُبقِي بَلَدَه بيده، فقد شرهَ إلى كثير، فكيف لفُضُول العَمَل الذى كنتُ أرَى وأمَيِّزُ ؟

ولمّا قامت علينا اليُسّانَة، على ماقدّمنا ذِكْرَه، كان ابن الأحمَرِ يُداخلُها، ويَعِدُهم ويأمُرُهم بالتثَبُّت، حتّى تبدو إليهم الأحوال؛ ويَبْلُغُني ※[ق ٥٩ ب] من ذلك مايُقْلِق. فأردتُ بعض المكافأة على ذلك، وأن نُوَجِّهَ إلى مُرْسِيَة مَن يعقد ما ابتدأني به رَسولُهم ابنُ يَكون، المُتَصرِّف في خِدْمَتِهم، ويقول لهم أن يُبَيِّنوا كيف يريدون مُحاوِلة هذا الأمر: إن أرادوا القيام بدعوتنا لمُلِمّةٍ متى كانت، نغيثهم فيها بأموالنا ورجالنا؛ ومافائدةُ ذلك وثمرته فيما نَشْتَرِط نحن به؟

ولـمّا توجّه من ثقاتنا لذلك مَنْ أنْفَذْناهُ، اعْتقدَها الـمُعْتَمِدُ فى نفسه، على أنَّنا لم نكنْ نغرم على ذلك أبَدًا أكثر من طلب التَّعِلَّات عليه آخرَ ذلك بأنْ نسمع منه ما لا يوافق، فينتقض العمَل بسَبَبه، أو تُوقفَ الحالُ إلى أمدٍ مَا، كالذى يَقعُ بين الملوك من الـمُداخلات والأعمال: فمنْها ما لايتمُّ، أو يتمادَى إلى حين.

٦٩ - إرسال سفارة إلى يوسف بن تاشفين بسَبْتة من قِبَل عبد الله وإيقاع الخوف فى نفسه بعد رجوعها

وإنَّ أمـير المسـلمين، لـمّا أتى سَـبْتَةَ، وهو قد أحشـد وأعدَّ، قاصِـداً إلىجهَتنا، لايريدُ غَيْرهـا، أرْسَـلْنا إليه رُسُـلاً مقدَّمَـةً، بعد عِتاب كبير جـرى بيننا وبَـيْنَ المُعْتمِد على خبَر مرسِيَة، لم يَرِدْ به مفاسدة أكثر مما وصفناه.

وحانَ وصولُ أميرالمسـلمين إلى سبتة، وقدم رُسُـلُنا عليه، وهم: ابنُ سَهْل القاضى المتقدِّمُ ذِكره، المُسْتَعْمَلُ للعملة الموصوفة، وباديسُ بن زاوى من تَلكاتَة، يهنُّونه على سلامته ويتلقَّوْن بالرَّحب قدومَة ومُسارَعَتَنا إلى ما يذهب إليه فى جِهادِهِ، وما أشبه ذلك.

فانصرف الرسـولان المذكوران، يعلماني أن أمير المسلمين قابل لكلِّ ما ذَكرْناه، قد أعْرَضَ عليهما من الجميل ولطيف القول مالا شكّ فى مَحبَّته.

فسـرَّنا ذلك. وكان فيما قال لهم: «يصنع ما شـاءَ! لسـتُ ممن يكلّف أحَدًا إلّا طاقَتَهُ!» فكان ذلك منه دهاءً وحِذْقًا، مع ما نُبِّه عليه قَبْلُ، من قِبَل ابن سَـهْل بالمُخاطبة وغَيْره، أنّ نفارَنا عنه إنما كان من خشونة الكتْبة الواردة من عنده، وأنْ المُداراةَ بالقول أوْلَى، حتَّى يُظْهِر ما شاءَ ويمهِّد لعَمَله بذلك.

وإنَّ ابن سَـهْل. * [ق ٦٠ أ] لما رأى من خِلاف الجُنْد، واطّلع عليه من أنفُس أهل البَلَد مـا اطلع، قدَّم لنفسـه، ورأى ألَّا يُخلى من عَمَل يقرِّ به فيمن تقـرَّب. وأعْلَمه أنَّ البلدة ليس عليـه فيها مُخْتَلِفٌ، ونفث بذلك باديِـسَ المذكورَ. وصحَّ عندى وقتَ انصرافهما أنَّ ابنَ زاوى قال: «أرْسَـلْنا للخِدْمة له فى زعمـه، ولم نَصْنَعْ غير أنَّى كَتَّفْتُهُ، والقاضى ضرب عُنُقَه!» إلى أن وصل أمير المسلمين قُرْطُبة.

* * *